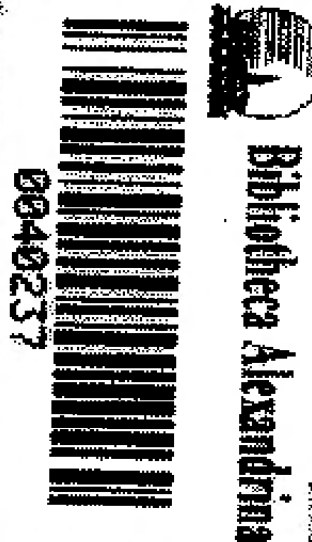


كتاب النخو

١٥٧

على النجدي ناصف

كتاب النخو



رئيس التحرير أنيس منصور

على البغرى ناصف

تاريخ النحو



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

أقدم في هذه الصفحات المحدودة موجزًا لتاريخ النحو العربي في نشأته ونظوره ، وعوامل التأثير فيه ، وأشهر علمائه الذين حملوا أمانته ، فحفظوها ، وأدوها أحسن الأداء ، وأحقه بالإعجاب .

ومجال القول في تاريخ النحو العربي ذو سعة لمن أراد الإفاضة فيه والانطلاق : فهو أول علم دُون في الإسلام ، إذ مضى على مولده قرابة أربعة عشر قرنًا لم يكن فيها لقي مهملاً ، ولا نسيًا منسيًا ، ولكن تتابعت عليه أجيال من العلماء الجادّين ، يتفقون قصدًا وغاية ، وإن اختلفوا وطنًا وجنسًا ، وشخصية ومنهج تفكير .

وكان فيهم علماء أفذاذ ، آتاهم الله ما يشاء من الكفاية وفَضْلُ المزية ، وإن كلاً من هؤلاء وهؤلاء ليبدل فيه كل ما يفتح الله به عليه ، وما تهديه تجربته إليه ، ويصوره خياله له في الجانب أو الجوانب التي طاب له أن يتناوله منها ، فكانت لنا هذه الثروة الضخمة النفيسة ، من مؤلفاته المتعددة الموضوعات والأحجام .

ولم يكن إذ ذاك تخصص في العلوم ، ولكنها كانت شركة بين طلابها جميعاً ، فهم يتواردون عليها كلها ، أو على جملة صالحة منها ، ثم يغلب على كل ما يغلب عليه منها ، وكان النحو خاصة لا يطلب هوناً ، أو يُترك استغناء إيماناً صادقاً بحاجة كل ذي علم إليه ، فهو معيار اللغة ، ومفتاح سرها ، ووسيلة الفهم عنها .

من أجل ذلك لم يكف جمهورهم بعلم ما فيه الكفاية منه ، ولكنهم توسعوا فيه ، وشاركوا المنقطعين له في الرأي والتأليف . وإذا كان بسط التاريخ أقدر على الاستيعاب والتبيين من إيجازه - فإن الإيجاز أقدر منه على الجمع والتقريب ، لأنه اختيار وانتقاء . ولكل مقام مقال كما يقولون . وقد جهدت ما استطعت ألا أدع شيئاً مما بدا لي أنه حقيق بالذكر إلا جئت به في نطاقه المحدود . وعسى أن يكون في ذلك بلوغ غاية ، وإدراك حاجة ، إن شاء الله تعالى .

على النجدي ناصف

أولية النحو

النحو نوعان : بَصْرِي ، وَكَوْفِي . والبصري أسبق وجوداً من الكوفي ، وإليه يُرَدُّ وضع النحو ، ما في ذلك خلاف ولا مراء ، فمن حقه علينا أن نبدأ به . والحديث عنه ذو شقين : الأول عن بيئة النحو والآخر عن واضعه .

بيئته :

نشأ النحو في البصرة ، وما كان له أن ينشأ في غيرها : فهي المدينة التي اشتدت فيها الحاجة إليه قبل غيرها ، إذ لم تكد تُحصَّر . ويتسامع الناس بها وبوفرة الخيرات فيها حتى انتالت إليها أفواج من العرب ، وأخرى من العجم .

وتوالى الهجرة إليها على تعاقب وازدياد ، حتى بلغت عِدَّة مقاتلتها أيام كان زياد والياً عليها - ثمانين ألفاً ، وبلغت عدة عيالهم مائة وعشرين ألفاً^(١) ، وكان تمصيرها سنة ١٤ ، وولاية زياد سنة ٤٥ فكل ما بينهما نحو ثلاثين عاماً .

وعاش أهل البصرة من العرب والعجم كما يعيش أهل الوطن الواحد

(١) البيان والتبيين : ١٣٠/٢ .

من أصول مختلفة ، تجمعهم أواصره ، وتدعوهم دواعي العيش فيه إلى التفاهم والمعاملة ، ولا يمكن أن يتم تفاهم ، وتيسر معاملة إلا باللغة ، فلم يكن بد لهذه الأخلاط من اصطناع لغة واحدة ، إلى جانب لغاتها المتعددة . فكانت العربية هي هذه اللغة ، لأنها لغة الدولة القائمة ، ولسانها الرسمي ، وهيئات أن تستطيع الجاليات الأجنبية إتقان الفصحى والتحدث بها ، كما يتقنها ويتحدث بها العرب الخالص .

لذلك أصبحت العربية عربيتين : فصيحة بصطنعها العرب ، وأخرى يشيها قليل أو كثير من اللحن والتعريف ، يتحدث بها المستعمرون في الحياة العامة ، على أن اللحن والتعريف كانا بشريان لغة العرب أو بعضهم أيضاً ، ولكن بمقدار ، وعلى تفاوت واختلاف : فقد روي أن عمر - رضي الله عنه - جاءه كتاب من عامله على ميسان ، وقد لحن كاتبه فيه ، فكتب عمر إلى العامل : أن قنع كاتبك سوطاً^(١) !

وشىء آخر يؤيد ظهور النحو في البصرة ، وهو : أن الإمام علياً ، وعبد الله بن عباس ، وأبا الأسود الدؤلى - كانوا يقيمون بالبصرة ، سبق إليها أبو الأسود ، وجاءها الإمام وابن عباس أيام الفتنة الكبرى ، ويتنازع الرواة نسبة وضع النحو إلى ثلاثهم في كثير من الروايات . ومعقول أن يكون وضع النحو إبان هذه الحقبة ، إذ كان غِلَاط العرب

والمعجم حيثند أشد ، واللحن في العربية أكثر ، والحاجة إلى النحو أكد .

وقد كان عمر - رضي الله عنه - ملهماً حين كتب إلى أبي موسى الأشعري في ولايته على البصرة أن يكل إلى أبي الأسود تعلم الإعراب^(١)

واضع النحو :

وردت روايات شتى عن واضع النحو ، تتحدث عنه من جوانبه المختلفة . تتحدث عن سبب وضعه ، وعن واضعه ، وعما وضع منه أول الأمر . فأما سبب وضعه فظهور اللحن ، واستفحال خطره على مر الأيام .

وكانت العرب تحقت اللحن أشد المقت : وتراه منقصة تزعج أصحابها ، لا في مطلع الإسلام فحسب ، ولكن فيما تلاه كذلك إلى أمد بعيد ، وكانوا لا يسكتون عن لحنة تعرض : بل لا يقرون على شك منها ، لا في قول يقال : ولا في نص يروى .

فقد حدثوا أن جارية غنت في مجلس الواثق بقول الشاعر^(٢) :

(١) فتح البلدان : ٣٨٤ والإصابة رقم : ٤٩٦٣ .

(٢) هو العرجي في درة الغواص : ٤٣ ، والحارث الخزومي في الخزانة : ٢١٧/١ وانظر

إنباء الرواة : الصلب والحاشية : ٢٤٩/١ .

أظلم إن مصابكم رجلاً أهدي السلام تحية ظلم
فأنكر عليها بعض أهل المجلس أن نصبت (رجلاً) في البيت ، بظن
أنه خبر إن ، فالوجه رفعه : والصواب أنه مفعول به للمصدر مصاب ؛
لأنه بمعنى إصابة ، وأبت الجارية أن تغير الضبط ، وقالت : إنها قرأته
هكذا على أبي عثمان المازني ، فاستقدم الخليفة المازني من البصرة ، فأيد
رواية النصب وشرح وجهه .

وقد وردت روايات كثيرة تغزو وضع النحو إلى أبي الأسود ،
بلا خلاف بينها ، إلا في سبب وضعه والمضى فيه : أكان إحساساً
مضروجه . أم كان إشارة من عمر^(١) . أم من الإمام علي^(٢) . أم من
زياد^(٣) ؟

ويبدو أن الأمر شبه على القائلين بإشارة عمر ، وإشارة زياد ،
فحسب الأولون أن عهد عمر إلى أبي الأسود في تعليم الإعراب - يعني
إشارة بوضع النحو ، وحسب الآخرون أن نقط أبي الأسود للمصحف
في عهد زياد هو الإشارة بوضعه . أما القائلون بإشارة الإمام علي فلم
يُبعدوا ، لأن أبا الأسود كان من أخص شيعته المقربين ، فمن الطبيعي أن
يكون علي صلة ما بنحو أبي الأسود ، إشارة به ، أو إرشاداً فيه .

(١) نزعة الألبا : ٧ - ٩ .

(٢) طبقات القراء : ١ / ٣٤٥ .

(٣) مراتب المحوئين : ٩ .

ويُروى أن واضح النحو هو الإمام نفسه ، وأن أبا الأسود أخذه عنه ^(١) . ولا يتعاضد الإمام أن يضع النحو لو أراد ، فعبقريته لا خلاف عليها ، لكن الأعباء التي كان يضطلع بها أثقل من أن تتيح له التفكير في ذلك ؛ إذ كان - كرم الله وجهه - موزع الجهد والفكر لتثبيت دعائم الدولة ، وإقامة أحكام الدين ، وتدبير شئون الرعية ، وإحباط المكابدة . وفي أخبار أبي الأسود شواهد تدل على أنه كان - كما نوسم فيه عمر - صاحب حسن لغوى مرهف ، يستطيع به تمييز الأساليب بعضها من بعض ، وإدراك ما يكون بينها من أوجه الخلاف والمشابهة ، وما يكون لذلك من أثر في المعنى صحة وفساداً .

فقد رووا أن أصهاره من بني قشير كانوا يعلمون مبلغ حبه وإخلاصه للإمام على . وأنهم كانوا - إغاضة له - ينالون من الإمام بحضرته ، فقال في ذلك قصيدة ينكر إساءتهم له ، ويؤكد وفاءه بالعهد وإخلاصه للعقيدة ، ومنها في آل البيت :

أحب محمداً حباً شديداً	وعباساً وحمزة والوصياً
بني عم النبي وأقريبه	أحب الناس كلهم إلينا
فإن يك حبيبهم رشداً أصبه	ولست بمخطئ إن كان غياً

فقال بنو قشير : شككت يا أبا الأسود في صاحبك حيث تقول :
فإن يك حبيبهم رشداً أصبه .

فقال أبو الأسود : أما سمعتم قول الله عز وجل : (وَأَنَّا أَتَيْنَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(١) . فأبو الأسود يعلم من أسرار البيان ما لا يعلمون ، وأحاطهم في الحجاج على الآية لعلهم يفهمون أن الكلام قد يكون في ظاهره شكاً ، وما هو في حقيقته بشك ، ولكنها التورية اللطيفة يُصار إليها أحياناً .

ويصف أبو الأسود مبلغ حسه اللغوي من الرقة وصدق التمييز ، فيقول : إلى لأجد للحن غمراً كغمر اللحم^(٢) .

ويذكر ابن النديم أنه رأى أربع ورقات يحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود - رحمة الله عليه - بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي ، وتحت هذا الخط النصير بن شمبل^(٣) . وهذا كلام رجل ثقة لا يحدث بما سمع ، ولكن بما رآه رأى العين .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أبا الأسود كان على صلة بالسريانية ، والأرجح أنه قد تعلمها^(٤) ، ورأى آخر : أن يعقوب

(١) الأغاني : ١١٢/١١ ، ١١٣ ، والآية في سورة سبأ : ٢٤ .

(٢) طبقات النحويين : ١٥ ، والغمر ، بالتحريك : الدسم ودهومة اللحم .

(٣) الفهرست : ٦٠ ، ٦١ .

(٤) اللغة والنحو : ٢٥٠ ، ٢٥١ .

الرهاوى كان معاصراً لأبى الأسود ، وأن له كتاباً فى نحو السريانية ^(١) . وكلا القولين يشعر بأن النحو العربى ليس عربياً صريحاً ، وأن أبى الأسود قد أفاد له من السريانية على نحو ما ! وهو كلام يقوم - كما ترى - على مجرد الظن ، ويكثر ترداد مثله كلما ذكرت أوليات علوم العرب . كأنما كُتب عليهم من بين خلق الله أن يكونوا أبداً تلاميذ لغيرهم فى العلوم ، وهو كلام يمكن قبوله والتسليم به حين يكون له سند غير المندس والتخمين .

وتقتضى طبيعة الأشياء أن يكون ما وضعه أبو الأسود من النحر مجرد ملاحظات يسيرة ، هُدى إليها بالنظر فى الأساليب واستقراؤها على قدر الطاقة فى المقامات المتنوعة ، وتيسر له بفضلها أن يستنبط منها ضوابط لا تبلغ مبلغ القواعد التى تُقرر الأحكام فى أطراد وشمول . ومن يكن مثل أبى الأسود فى سلامة الفعارة والظن الحسنى لا يستعصى عليه أن يهتدى إلى هذه الأوليات وزيادة . وما كان الخليفة عمر ليختاره معلماً للإعراب إلا وهو صالح له ، وكاف فيه ! وقد كانت العرب أو أناس منها يدركون فروق المعانى المختلفة فى العبارات التى تختلف فيها حركات الإعراب أو طرائق التعبير تقديماً وتأخيراً ، وذكراً وحذفاً . ومن ذلك أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : (. . . أن الله يرى) من المشركين (ورسوله) ^(٢) بجرلام رسوله ، فقال الأعرابى : أو يرى الله

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٤٨/٧ . (٢) التوبة ٣/ .

من رسوله^(١) ؟ . ويقول سيويه ، فيما يقول : ليس من العصية إذن ولا من التجنى على الحقيقة أن نقول مع القائلين : إن النحو العربي عربى النسب ، وما هو بالدخيل ولا المهجين .

(١) صبح الأعشى : ١ / ١٢٩ .

النحو وأشهر النحاة

من أبي الأسود إلى سيويه

لم يكد أبو الأسود يضع النحو . ويعلم الناس نبأه عنه حتى أقبل تلاميذه عليه . يأخذون عنه ، ثم يأخذ تلاميذهم عنهم من بعده . وهكذا جعل النحاة يتتابعون مع الأيام طبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين ، وجعل النحو ينمو غرسه ، ويشتد عوده دراكاً عصراً بعد عصر . حتى كأن القوم قد أعدهم الله له من قبل على أفضل ما يكون الإعداد ، فما بهم إلا أن ثومض ومضة البدء ، وتشير إشارة التوجيه ليمضوا به خفافاً ، فإذا هم بعد قليل قد طَـوَّـا به شوطاً بعيداً لم يكن ليلفه لولا العمل الدائب والجهد المتصل .

فهذا بلال بن أبي بردة والى البصرة يدعو إلى مجلسه عبد الله ابن أبي إسحق وأبا عمرو بن العلاء ، وهما من رواد النحاة ، ليتناظرا بين يديه . ثم يقول أبو عمرو عما انتهت إليه المناظرة : « فغلبني ابن أبي إسحق بالهمز »^(١) فقد اتسع ميدان النحو يومئذ حتى سمع لهذين العالمين الجليلين أن يتجاولا فيه جولات متكاملة ، يتحقق بها الغلب

(١) طبقات النحويين : ٢٥ .

والهزيمة ، ولم يكن مَبْصِي على ظهوره إلا قرابة أربعين عاماً ، إذ كانت وفاة أبي الأسود سنة ٦٩ ، وولاية بلال سنة ١٠٩ .

وستترجم هنا أبا الأسود ، وأشهر النحاة الذين جاءوا من بعده إلى سيويه بترتيب سني الوفاة :

١- أبو الأسود :

المشهور أن اسمه ظالم بن عمر^(١) ، يرتفع نسبه إلى الدثئل بن بكر ، وإليه ينسب ، ولد بمكة ، ورحل إلى المدينة ، فروى عن عمر ، وقرأ على عثمان وعلى^(٢) ، ثم أشخصه عمر إلى البصرة في ولاية أبي موسى الأشعري ليعلم الناس الإعراب^(٣) . وولاه الإمام قضاء البصرة ، ثم جعله والياً عليها بعد ابن عباس حين خرج إلى مكة مفاضباً للإمام^(٤) . وتوفي أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ .

وكان - رحمه الله - من أوفى الشيعة للإمام ، وأشدّهم إخلاصاً له ، وهو الذي وُضِعَ النحو ، وضبط المصحف الشريف . ومن

(١) الأنساب : ٢٣٣ ، وتاريخ ابن عساكر : ٤٨٨/١٨ .

(٢) طبقات القراء : ٣٤٦/١ .

(٣) إنباه الرواة : ١٦/١ .

(٤) طبقات ابن سعد : ٧ ، والإصابة : ٣٠٤/٣ ، وإنباه الرواة : ٣٨٠/١ .

قراءاته : (أَلَا إِنَّهُمْ تَتَنَوَّى صُدُورُهُمْ) و (هَيْتَ لَكَ) ^(١) .
ومن الذين أخذوا عنه يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ ، وميمون
الأقرن ، وعنبسة القليل ، ولسنا نعرف عن نحوهم شيئاً . ولا نجد لهم
ذكرًا في كتاب سيويه ، ولا عنهم رواية فيه .

٢- عبد الله بن أبي إسحاق :
هو عبد الله بن أبي إسحاق الحَضْرَمِي ، أخذ عن يحيى بن يعمر
ونصر بن عاصم ، ويقولون : إنه قرع النحو . وأعمل القياس فيه ،
ودرس المهرز ، وله فيه كتاب . وتوفى سنة ١١٧ ^(٢) .
ومن تقول سيويه عنه : أنه كان يقرأ آية (يَا لَيْتَنَا تُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ
بِآيَاتِ رَبِّنَا) الأنعام/٢٧ بنصب نكذب .

٣- أبو عمرو بن العلاء :
اسمه كتبه على المشهور ، وقيل : اسمه زيان ، ولد بمكة سنة ٦٨ ،
ونشأ في البصرة ، وأخذ عن عبد الله بن أبي إسحاق ، ويحيى بن يعمر ،
وقرأ على أنس بن مالك ، والحسن البصري .

(١) المحصب ٣١٨/٢ ، ٣٣٧ والأولى من سورة هود من آية (٥) والأخرى من سورة
يوسف من آية (٢٣) .

(٢) مراتب النحويين : ١٢ ، وإنباء الرواة : ٢٠٧/١ .

وهو من القراء السبعة ، وكان إمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة وأيام العرب والشعر ، مع الصدق والثقة والزهد ، وكان من أشراف العرب ووجهاتها . وتوفي سنة ١٥٤ (١) .

ونقل عنه سيويه أكثر من أربعين نقلاً ، معظمها من طريق يونس ابن حبيب ، ومنها : قوله عن المستثنى بإلا حين يكون الكلام تاماً منقياً : الوجه ما أتاني القوم إلا عبداً لله . ولو كان هذا بمنزلة أتاني القوم ما جاز أن تقول : ما أتاني أحد ، كما أنه لا يجوز أتاني أحد (٢) . وقوله : واعلم أن ما كان صفة للمعرفة لا يحسن أن يكون حالاً يتصبب انتصاب النكرة (٣) .

٤- الخليل :

هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي . ولد سنة ١٠٠ . وأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وغيرهما ، وخرج إلى البادية يشافه أهلها ، ويأخذ عنهم اللغة ، ويُعد الخليل من أفذاذ التاريخ ، وأصحاب الأوليات في العلوم .
آتاه الله حساً لغوياً مدرباً ، وذهناً رياضياً بارعاً ، وذوقاً موسيقياً

(١) مراتب النحويين : ١٣ ، وطبقات النحويين : ٢٨ ، وطبقات القراء : ٢٨٨/١ .

(٢) الكتاب : ٣٦٠/١ .

(٣) الكتاب : ٣٦٠/١ .

مرهفاً ، فبلغ الغاية في النحو ، واخترع العروض وخرج به على الناس علماً كاملاً ، كما اخترع طريقة تدوين المعاجم ، واستنبط من النحو في أصوله وفروعه وعمله وأقيسته ما لم يسبقه إليه سابق . ونقل عنه سيويه أكثر من خمسمائة نقل . وكان - رحمه الله - عفيفاً زاهداً متقشفاً ، قضى حياته منقطعاً للعلم والتعليم ، وتوفي سنة ١٧٥^(١) .

٥- يونس بن حبيب :

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي ، ولد سنة ٩٠ ، وأخذ عن أبي عمرو ، ويقولون : إنه كان صاحب قياس في النحو ، وله مذاهب تفرد بها . وقد نقل عنه سيويه نحو مائتي نقل . وأكثر ما نقل عنه بابان من التصغير ، فقال : وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب ، وما أذكره لك في الباب الذي يليه قول يونس^(٢) . وتوفي سنة ١٨٢ . وما نقل عنه قوله : « وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله رب العالمين) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية »^(٣) وقوله : « ومن ذلك قول العرب : من أنت زيداً ؟ فزعم يونس أنه على قوله : من أنت

(١) مراتب النحويين : ٢٧ - ٤١ ، وطبقات النحويين : ٤٣ - ٤٧ ، وإنباء الرواة :

٣٤/١ - ٤٧ .

(٢) الكتاب : ١٠٩/٢ . ونشأة النحو : ٨١ .

(٣) الكتاب : ٢٤٨/١ .

تذكر زيداً ، ولكنه كثر في كلامهم ، واستعمل واستغنوا عن إظهاره (١) .

٦ - سيويه :

هو عمرو بن عثمان بن قنبر . وسيويه لقبه الذي لا يكاد يُذكر أو يُعرف إلا به . ولد بالبيضاء إحدى مدن فارس ، ونشأ وأقام بالبصرة ، وأخذ عن الخليل ، وأطال ملازمته ، وكان أحب تلاميذه إليه . وأخذ كذلك عن عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، وغيرهما . وهو صاحب أعظم كتاب في النحو ، وأبقاه على الأيام . وتوفي سنة ١٨٠ (٢) .

كتاب سيويه : لم يُسمَّ سيويه كتابه . ولا جعل له مقدمة ولا خاتمة ، ولعله كان على نية العود إليه لبعض الأمر ، لكن عائقاً حال دون ما كان ينويه . ومن قبل سَمَّى عيسى بن عمر كتابين له ، أحدهما الإكمال ، والآخر الجامع .

على أن القدماء سموه عنه ، إذ أطلقوا عليه اسم الكتاب غير موصوف بوصف ، ولا معين بإضافة ، فكان إذا ذكر لفظ الكتاب مجرداً فهو كتاب سيويه ، كأنها هو وحده الكتاب على الحقيقة ،

(١) الكتاب : ١٤٧/١ .

(٢) مراتب النحويين : ٦٥ وطبقات النحويين : ٦٦ . وإنباء الرواة : ٣٤٦/٢ .

وما سواه فكتاب على المجاز ا

وسيبيويه لا يقرر في الكتاب قواعد ، ولا يشترط للأحكام شروطاً ، ولا يلتزم تعريف المصطلحات ، ولا ترددها بلفظ واحد . وإنما الكتاب فيض غزير من الأساليب والمفردات . وبعض الأساليب مأثور ، وبعضه محدث ، يعرضها سيبويه ليدرسها ويحللها ، ثم يقضي قضاءه فيها صحة أو خطأ ، حسناً أو قبحاً ، كثرة أو قلة ، وهكذا .

وهو في أثناء ذلك يعرض صنوفاً من سماعه ، وكثيراً من آراء شيوخه ، ولا سيما الخليل ، فينقدها ، أو يعلق عليها ، أو يجعل منها تماماً للمسألة التي يدرسها ، أو تأييداً لها ، وكذلك يزجي كثيراً من لغات العرب ، وفيضاً من الشواهد المتنوعة ، بعضها آيات من القرآن الكريم ، وعدتها : ٣٧٣ ، ولا يفوته أن يذكر قراءاتها عند الحاجة إليها ، وبعضها الآخر من الشعر ، وعدتها ٨٧١ ، ومن الرجز ، وعدتها ١٩٠ ، ولا يفوته أن يصبح نسبة الشواهد التي يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها (١) .

تلك عدة شواهد سيبويه بحسب إحصائي لها وبعض شواهد من الشعر والرجز غير منسوب إلى قائله ، لكن العلماء يثقون بشواهد كلها ، ويتقبلونها عنه بقبول حسن . وله شواهد من الأحاديث النبوية ، لكنه لا يذكرها بما يدل على أنها أحاديث ومنها :

(١) الكتاب : ١ / ٣٣٦ .

- ١ - سُبحاً قُدُّوساً رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ (١) .
- ٢ - مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ فِيهَا الصَّوْمُ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ (٢) .
- ٣ - كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ هُمَا يَهُودَانِهِ ، وَيُنَصِّرَانِهِ (٣) .

ويغلب على عبارة الكتاب التلاحم والانسياب ، حتى ليقبل أن تمر فيها بمقطع يحسن الوقف عليه إلا حين يصرف القول عن وجهه إلى شاهد يرويه ، أو سؤال يسأله ، أو حوار يُديره . وهي واضحة بينة حيناً ، وغامضة مبهمّة حيناً آخر . ولا يلتزم الذهاب بها إلى معناها قصداً ، فربما طاب له الاستطراد إلى غير ما يكون فيه من مقام كاستطراده من القول في الاشتغال إلى القول في صيغ المبالغة (٤) .

ولا يكتفى سيبويه بواقع النصوص في استنباط الأحكام ، ولكنه يلجأ أحياناً إلى فرض الفروض ثم يشرع لها إكمالاً لصور عقلية تتمثل في ذهنه ، أو تداركاً لما فات النصوص أن تلم به .

كذلك لا يقتصر على مسائل النحو والصرف ، بل يزيد عليها مباحث قيّمة رآها موصولة الأسباب بهما ، ونقلها العلماء من بعده إلى

(١) الكتاب : ١٦٤/١ ، والحديث في صحيح مسلم : ٥١/٢ .

(٢) الكتاب : ٣٢/١ ، والحديث في الجامع الصغير بشرح السراج المنير : ٢٥٥/٣ .

(٣) الكتاب : ٣٩٦/١ ، والحديث في التجريد الصريح : ٩٣/١ .

(٤) الكتاب : ٥٦/١ .

علوم أخرى . ونكتفي هنا ببيان مواطن بعض هذه المباحث من الكتاب ، ومواطنها من الكتب التي نقلت إليها ، وليست من كتب النحو والصرف .

لقد نقل عبد القاهر إلى أسرار البلاغة ^(١) من باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى ^(٢) ، ونقل ، إلى دلائل الإعجاز ^(٣) من باب من النكرة يجرى مجرى ما فيه الألف واللام ^(٤) ، ومن باب ما يحسن عليه السكوت ^(٥) .

ونقل الثعالبي إلى أسرار العربية ^(٦) من باب مجازى أواخر الكلم من العربية ^(٧) ، وباب الحروف التي يجوز أن يليها بعدها الأسماء ^(٨) . . . وباب ما أُلِفَظَ به مما هو مثنى ^(٩) . . .
وتحدث سيويه في باب الإدغام حديثاً بارعاً عن حروف المنجاء

(١) أسرار البلاغة . ٣٤١ .

(٢) الكتاب : ١٠٨/١ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٣٣ ، ٢٤٧ .

(٤) الكتاب : ١٦٦/١ .

(٥) الكتاب : ٢٨٤/١ .

(٦) أسرار العربية : ٣٢٢ .

(٧) الكتاب : ٧/١ وما بعدها .

(٨) الكتاب : ٤٦٠/١ .

(٩) الكتاب : ٢٠١/٢ .

وعدها ، أصولاً وفروعاً ، وعن مخارجها وأنواعها ، من مجهور ومهموس وشديد ورنحو^(١) . . .

ونلاحظ أن سيويه لم ينقل عن شيوخه في هذه الأبواب التي ذكرناها : فهل علينا إذا قلنا : إن سيويه هو واضع البلاغة والتجويد^(٢) ؟

وسيويه بعد هذا يشقُّ الموضوعات المتشعبة ، ويفرقها على عدة أبواب : فعرض الاستثناء في سبعة عشر باباً^(٣) ، والترقيم في اثني عشر^(٤) . ثم هو يذكر بعض الأبواب في غير المواقع التي نجانسها . فوضع القسم وحروفه بين التصغير ونون التوكيد^(٥) .

وبعد ، فلا تعرف العربية كتاباً حقل به الناس ، وأفادوا منه على تعاقب الأجيال ككتاب سيويه . فقد ألّفوا عنه كتباً ، وأداروا حوله دراسات لا تحصى كثرة .

ألّفوا في شرحه ، والتعاليق عليه ، والتهديد له ، وترتيب مسأله ، وحل مشكلاته ، وتوضيح غريبه وشرح شذوائه ، وتجريد أحكامه .

(١) الكتاب : ١٠١/٢

(٢) تاريخ البلاغة والتعريف برجالها : ٤٣ .

(٣) الكتاب : ٣٥٩/١ .

(٤) الكتاب : ٢٣٢/١ وما بعدها .

(٥) الكتاب : ١٤٣/٢ ، وانظر سيويه إمام النحاة : ٨٩ - ١٩٢ .

اختصروه ، واختلفوا فيه ما بين متعصب عليه ، ومتعصب له ،
وانتصر هؤلاء أنصار ومؤيدون ومنهم من انقطع له حتى حفظه أو أتقن
فهمه وتخصص فيه .

ولم يقدر لسيويه أن يقرأ الكتاب على أحد أو أن يقرأه عليه أحد ،
وإنما قرأه الناس بعده على أبي الحسن الأخفش ^(١) : فقد ورث - رحمه
الله - علم سيويه ، وكان طريق الناس إليه ، كما حمل سيويه علم
الخليل ، وكان طريق الناس إليه .

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٠ .

النحو وأشهر النحاة

فيما بين سيويه وانقسام الدولة العباسية

لم يَشَقَّ النحاة بعلاج النحو بعد أن جاءهم كتاب سيويه . فقد يَسَّرَ لهم سبيله ، بما أصل من أصول ، واستخرج من كنوز ، وأقام من حُجج ، وقَدَّم من شواهد ، واتمس من علل . فلم يَدْعُ لهم إلا أن يدرسوه ، ويروا رأيهم فيه نقداً وخلاقاً ، أو مناصرة وتأييداً ، وإلا أن يستوحوه ويستمدوا لمصنفاتهم منه .

وهذا ما كان ، فإذا كنا منهم أصناف من الكتب ، أبين طريقاً ، وأقوم تنسيقاً . وليست - مع ذلك - تخلو من رأى شديد ، أو حجة قاصدة ، أو علة ناهضة ، أو شاهد لا مَعْمَر فيه . وليس ذلك منهم بالعمل القليل ، ولا هو بالأمر اليسير ، فتلك غاية ما تقضى به داعية الحال ، وسنة التطور الذي أحدثه كتاب سيويه في عالم النحو والنحاة . والآن هلم إلى طائفة من أشهر نحاة هذه الحقبة .

١- الأنخفش :

هو سعيد بن مسعدة ، الملقَّب بالأنخفش ، أصله من مَنبِج ، ثم

سكن البصرة ، وأخذ عن سيبويه وكان يقول : ما وضع سيبويه شيئاً في كتابه إلا عرّضه على . وكانت له مكانة رفيعة في النحو بين البصريين والكوفيين . قرأ النحو على سيبويه ، وهو وحده طريق الناس إلى كتابه ، توفي سنة ٢١٥ على التقريب^(١) .

ومن مؤلفاته في النحو . كتاب المقاييس ، والاشتقاق . وله آراء مثورة في كتب النحو منها : أنه يُجيز جمع أسماء العدد ، ولا يجيز غيره أن يُجمع منها إلا المائة والألف^(٢) .

٢ - المازني :

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بنية ، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش . وكان إماماً في اللغة ، وراويّة واسع الرواية ، كما كان بارعاً في الحجاج والمناظرة ، توفي سنة ٢٤٩ ، وقيل غير ذلك^(٣) .

ومن كتبه : علل النحو ، وتفسير كتاب سيبويه ، والتصريف ، وقد شرحه ابن جني ، وهو مطبوع . ومن آرائه النحوية أن جمع المؤنث يجب بناؤه على الفتح مع لا النافية للجنس^(٤) .

(١) مراتب النحويين : ٦٨ ، وأخبار النحويين البصريين : ٥٠ ، وبنية الوعاة :

٥٩٠/١ .

(٢) الجمع : ٤٣/١ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٩٢ ، وبنية الوعاة : ٤٦٣/١ .

(٤) الجمع : ١٤٦/١ .

٣- المبرد :

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، ولد سنة ٢١٠ ، ونشأ بالبصرة ،
سمع الكتاب من الجرمي ، وأتمه على المازني . وكان إمام العربية في
عصره ، توفي سنة ٣٨٦^(١) .

ومن مؤلفاته : المقتضب ، وإعراب القرآن ، والكامل في فنون من
اللغة والأدب والنحو . ومن آرائه في النحو : أن المصدر المؤول من أن
ومعمولها بعد لو يعرب ، فاعلاً ثبت محذوفاً^(٢) .

٤- الزجاج :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج ، كان أول أمره يخرط
الزجاج ، ثم مال إلى طلب النحو ، فلزم المبرد بأخذ عنه ، ثم اتصل
بالمكتبي ، وصار نديماً له ، وتوفي سنة ٣١٠^(٣) .

ومن كتبه : الاشتقاق ، وفعلت وأفعلت ، وشرح أبيات سيويه .
ومن آرائه النحوية : جواز إعمال لعل وكان حين تتصل بهما ما^(٤)

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٩٦ ، طبقات النحويين : ١٠٨ .

(٢) الجمع : ١٣٨/١ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٨ ، ونبذة الوعاة : ٤١١/١ .

(٤) الجمع : ١٤٣/١ .

النحو الكوفي وأشهر علمائه

بدأ اشتغال الكوفة بالنحو في حياة الخليل : أي بعد وفاة أبي الأسود بنحو تسعين عاماً ، فقد كانت وفاته سنة ٦٩ ، وكانت الكوفة في خلال هذه المدة عاكفة على القرآن الكريم ، تقرأه وتقرئه ، وعلى الشعر ترويه وتتناشده ، ولذا كان فيها ثلاثة من القراء السبعة ، هم : عاصم المتوفى سنة ١٢٩ ، وحمزة المتوفى سنة ١٥٦ . والكسائي المتوفى سنة ١٨٦ ، وفي كل مصر قارئ واحد . أما النحو فكانت - على ما يبدو - قاعة منه بما يجيئها من البصرة ، ثم انتهت إليه وشغلت به . وأشهر علمائها فيه :

١- معاذ الهراء :

هو أبو مسلم معاذ الهراء ، نشأ بالكوفة ، وكان يبيع للثياب الهروية ، فعرف بها . أخذ عنه الكسائي والفراء ، ويقال : إنه أول من وضع التصريف . وتوفى سنة ١٨٧^(١) .

٢- الكسائي :

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي . إمام نحاة الكوفة ، وأحد

(١) الفهرست : ٩٦ ، وإنباء الرواة : ٢٨٨/٣ ، وبغية الوعاة : ٢٩٠/٢ .

القراء السبعة ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن الهراء ، والخليل . وأقرأه
الأخفش كتاب سيويه ، ورحل إلى البادية فحفظ كثيراً من اللغة ،
وعهد إليه الرشيد في تأديب الأمين والمأمون . توفي سنة ١٨٩ ، ومن
كتبه : معاني القرآن ، ومختصر النحو ، ويُعد الكسائي إمام نحاة
الكوفة (١) .

ومن آرائه النحوية : جواز إعمال اسم الفاعل وهو ماضي .
الزمن (٢) .

٣- القراء :

هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي ، وُلد بالكوفة ، وأخذ عن
الكسائي ، وعن يونس بن حبيب . وكان أبرع الكوفيين في علمهم .
وتوفي سنة ٢٠٧ (٣) .

ومن كتب : معاني القرآن ، والمذكر والمؤنث ، والمقصود والممدود .
ومن آرائه النحوية : أن الاسم الذي بعد لولا ليس مبتدأ ، بل مرفوع
بها ، لاستغنائه بها كما يرتفع الفاعل بالفعل (٤) .

(١) طبقات النحويين : ١٣٨ ، وطبقات القراء : ٥٣٥/١ .

(٢) شرح التصريح : ٦٦/٢ .

(٣) مراتب النحويين : ٨٦ ، وطبقات النحويين : ١٤٣ .

(٤) الجمع : ١٠٥/١ .

٤- ثعلب :

هو أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، ولد سنة ٢٠٠ ، وأخذ عن محمد بن سلام الجُمَحِي ، ومحمد بن زياد الأعرابي وغيرهما ، ودرس كتب الكسائي والفراء ، وقرأ كتاب سيبويه على نفسه . وهو من أئمة الكوفيين في النحو ، ومات سنة ٢٩١ . ومن كتبه : اختلاف النحويين ، ومعاني القرآن ، وما ينصرف وما لا ينصرف ^(١) .
ومن آرائه : أنه إذا سُمي مذكر بمؤنث مجرد من التاء فإن كان ثلاثياً منع من الصرف سواء أكان محرك الوسط كضَخِد أم ساكنه كحَرَب ^(٢) .

(١) طبقات النحويين : ١٥٥ ، وإليه الرواة : ١٣٨/١ ، وبغية الوعاة : ٣٩٦/١ .

(٢) شرح الأئمة : ١٩٢/٣ .

مدرستا البصرة والكوفة

نشأ النحو في البصرة . وأقبل علماؤها عليه . يتدارسونه طبقة بعد طبقة ، ويضيفون إلى ما بين أيديهم منه كل ما عسى أن يفتح الله عليهم به . أما أهل الكوفة فكانوا منقطعين للقرآن والشعر ، كما ذكرنا آنفاً ، حتى إذا كان منتصف القرن الثاني تقريباً - تبينوا أن البصرة قد عظم قدرها ونبه ذكر علمائها ، بفضل ما صنعوا ويصنعون للعربية - هنالك هبوا يحاولون أن يناقسوهم ، ليكون لهم من الفضل مثل ما لهم . ولما لم تكن لهم سابقة في النحو - لم يجدوا بداً من أن يشجها إلى البصرة ، يطلبون فيها علم ما لا يعلمون : فذهب إليها الكسائي فيمن ذهب ، وأخذ عن الخليل ويونس ، ثم قرأ عليه الأخفش كتاب سيبويه . واصطحب الفراء كتاب سيبويه حياته ، لا يكاد يفارقه . كان نحو الكوفة إذن شعبة من نحو البصرة ، ثم تحول عنه في أصوله ، ومناهج درسه ، لاختلاف الأئمة هنا وهناك في مصادر الرواية والرأى فيها ، ثم في سمات الشخصية وطرائق التفكير . فكان للنحو مدرسة في البصرة ، وأخرى في الكوفة . وقدّر لنحو البصرة أن يكون أكثر تداولاً ، وأخلد خلوداً .

وأهم الفروق التي بين المدرستين : أن شيوخ البصرة كانوا لا يروون

إلا عن العرب الخالص الضاربين في أعماق الصحراء ، ولا يقبلون الشاهد إلا إذا وثقوا به ؛ لهذا نرى سيويه يردّد لفظ الثقة ومشتقاته فيما يروى وما يسمع من الشواهد ، كأنما يريد أن يطمئن أصحابه إلى أنه آخذ على الطريقة التي يتوارثونها . بل لم يكن يفوته أن ينبه على المصنوع من الشواهد أيضاً^(١) . أما الكوفيون فكانوا أقل تخرجاً في الرواية ، وأكثر ترخصاً في الاستشهاد .

وأخرى : أن البصريين كانوا يقيمون قواعدهم على الأكثر في اللغة ، ويأبون أن يتخذوا مادونه مصدراً لاستنباط ، ولا سنداً لرأى . أما ما يخالف الأكثر فربما أولوه بما يردّه إليه وربما عدوه من الضرورات التي لا يصر إليها في الاختيار ، وربما نحّوه جانباً ، وحكموا عليه بالشذوذ .

ويبدو أن أبا عمرو هو صاحب هذا الأصل : فقد سئل عما وضعه العربية : أيدخل في كلام العرب كله ؟ قال : لا ، قيل له : فكيف صنع فيما خالفته في العرب وهم حمّة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسهي ما خالفني لغات^(٢) .

أما الكوفيون فكانوا يأخذون اللغة من حيثها وجدوها ، وكانوا كلما

(١) الكتاب : ١ : ٢٦ - ١٥٣ .

(٢) طقات التحريين : ٤٣ .

عَرَضَ لَهُمْ شَاهِدٌ قَبْلَهُ . وَوَلَدُوا مِنْهُ حَكَمًا لَهُ مَا لَسَاثِرُ الْأَحْكَامِ ^(١) . وَمِنْ
أَمْثَلَةِ الْفَرْقِ فِي هَذَا بَيْنَ الْمُدْرَسَتَيْنِ : أَنَّ الْبَصْرِيِّينَ لَا يُجِيزُونَ تَقْدِيمَ الْفَاعِلِ
عَلَى فَعْلِهِ ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ قَوْلُ الزَّبَاءِ :

مَا لِلْجِجَالِ مَشْيُهَا وَثِيدًا أَجْنَدَلًا يَحْمِلُنَ أُمَّ حَدِيدًا ؟
لَأَنَّهُمْ يَعْدُونَهُ مِنْ قَبِيلِ الْضُرُورَةِ . وَيَعْرَبُونَ (مَشْيَهَا) مَبْتَدَأً حَذَفَ
خَبْرَهُ ، وَسَدَّتِ الْحَالُ (وُثِيدًا) مَسَدَهُ . وَالتَّقْدِيرُ : مَشْيَهَا يَظْهَرُ وَثِيدًا .
أَمَّا الْكُوفِيُّونَ فَقَدْ أَخَذُوا بِالشَّاهِدِ ، وَأَجَازُوا تَقْدِيمَ الْفَاعِلِ عَلَى فَعْلِهِ ، كَمَا
قَدِمَتْ (مَشْيَهَا) عَلَى (وُثِيدًا) ^(٢) .

وَلَعَلَّ كَثْرَةَ مِمَارَسَةِ الْكُوفِيِّينَ لِلتَّلَاوَةِ وَالرَّوَايَةِ هِيَ الَّتِي أَوْرَثَتْهُمْ
الْإِعْتِدَادَ بِظَاهِرِ النَّصِّ ، وَتَهَيَّبَ الْمُهْجُومَ عَلَيْهِ بِالتَّأْوِيلِ ، أَوْ الْإِنْكَارِ .
وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْبَصْرَةَ كَانَتْ أَقْلَ مِنَ الْكُوفَةِ تَحْمُلًا لِلْقُرْآنِ وَرَوَايَةِ
لِلشَّعْرِ ، فَقَدْ كَانَ الَّذِينَ يُحْفَظُونَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي عَهْدِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ
زُهَاءً ثَلَاثِينَ ^(٣) . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ الْأَمْرِ هُنَا وَهَنًا - أَنَّ الْكُوفَةَ آثَرَتْ
الْعَافِيَةَ ، وَقَنَعَتْ بِمَا حَفِظَتْ ، وَاسْتَمْرَأَتْ الْإِنْقِطَاعَ لِلْمَعَاوِدَةِ وَالتَّكْرَارِ ،
أَمَّا الْبَصْرَةُ فَقَدْ أُتِيحَ لَهَا الْحِفْظُ وَوُضِعَ النُّحُوفُ فَظَفَرَتْ بِالْحَسَنَيْنِ . وَلَمْ تَجِدْ
الْبَصْرَةَ حَاجَةً إِلَى الْأَخْذِ عَنِ الْكُوفَةِ ، إِلَّا أَبَا زَيْدٍ ، فَإِنَّهُ - فِيمَا يُقَالُ -

(١) المص : ١ : ٤٥ .

(٢) شرح ابن عقيل ، وحاشية الخضرى : ١ : ١٤٤ .

(٣) حلية الأولياء : ١ : ٢٥٧ .

أخذ عن المفضل الضبي^(١)

ثم إن البصريين يقدمون السماع على القياس إذا تعارضتا^(٢) . أما الكوفيون فربما جعلوا كلمة القياس هي العليا وإن لم يعززه شاهد . فقد منعوا تقدم الخبر على المبتدأ مطلقاً . لئلا يتقدم الضمير الذي فيه على مرجعه ، ففي قائم مثلاً من قولنا : قائم زيد ضمير زيد ، ولم يأبهوا لتأخر الخبر رتبة وإن تقدم لفظاً ، ولا للمأثور من الشواهد^(٣) .

والآن هل للنحو مدارس أخرى ؟ ينبغى قبل الإجابة عن هذا السؤال أن أعرف المدرسة . فهي : طائفة من العلماء ، أو الأدباء ، أو أهل الفن تؤلف بينهم في الإنتاج وصوره أصول ومناهج يلتزمون بها ، مع احتفاظ كلٍّ بخصائص شخصيته .

وهكذا كان أئمة النحو الأولون في البصرة والكوفة إبان نشأته ، فخرج النحو الذي صدر عنهم صدى لما عند كل من الفريقين من مواهب . ولما أصل من أصول ، وما أمدته العرب به من لغة . ولما أن اشتد عوده ، ونضجت ثمرته ، وآل من بعدهم إلى خلفائهم - لم يجدوا به نقصاً فيتموه ، أو صدعاً فيزأبوه ، فلم يبق إلا أن ينظروا في النحويين ، ويأخذوا لمصنفاتهم من كليهما أرجحه عندهم . ومنهم من

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٧ .

(٢) الخصائص : ١ : ١١٧ .

(٣) الإنصاف : ٦٥/١ .

جَعَلَ النحْو البَصْرِي أصلاً ، وزاد عليه مادعت إليه الحاجة من النحو الكوفي .

وهنا التقى النحوان بين أيديهم ، على سواء في الدرس والتحصيل ، واختلاف في مقدار النقل والاقتباس من هذا وذلك تليقاً للنحويين أخذ الحاجة به منذ القرن الثالث ، ولا يزال معمولاً به إلى اليوم ، فهل يصح أن نطلق على أصحاب هذا التلقيق اسم مدارس ، فنقول مثلاً : مدرسة النحو البغدادية ، أو مدرسة النحو المصرية ، كما جاء في كتاب المدارس النحوية ٢

يبقى بعد هذا أن النحويين القدماء يردّدون في كتبهم آراء يعزونها إلى من يصفونهم بالبغداديين . وقد فهم بعض الباحثين من هذا أن هؤلاء البغداديين يؤلفون مدرسة نحوية ثالثة ، لكن ثمة دلائل تدل على أن هؤلاء البغداديين هم الكوفيون الذين استقر المقام بهم في بغداد ، لأن وصفهم بالكوفيين مدعاة إلى اللبس والتخليط :

فالأخفش يقول عن سيبويه : مُنصَرَفُه من بغداد بعد مناظرته للكسائي : « وَجَّهَ إِلَى فِجْتَتِهِ ، فَعَرَفَنِي خَبْرَهُ مَعَ الْبَغْدَادِيِّ ^(١) » ، وَمَنْ يَكُونُ هَذَا الْبَغْدَادِيُّ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ الْكَسَائِيُّ ؟ وَيَقُولُ الْمَبْرَدُ : مَا رَأَيْتُ لِلْبَغْدَادِيِّينَ كِتَابًا أَحْسَنَ مِنْ كِتَابِ يَعْقُوبَ بْنِ السَّكِّيتِ فِي

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٧١ .

المنطق^(١) ، وابن السكيت كوفي^(٢) ويقول ابن جنى : لو قال قائل :
المبتدأ مرفوع بما يعود عليه من ذكر لقلت : « هذا قول الكوفيين » ، ثم
عاد فكرر العبارة في موضع آخر ، فقال : « ومن ذلك قول البغداديين :
إنما الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره »^(٣) .

ولئن كان نحو البصرة أحظى عند الناس - لقد كان نحو الكوفة
أحظى عند الخلفاء ، إذ كانت الكوفة أقرب من البصرة إلى بغداد ،
وفيهما كانت البيعة للسفاح ، ولبثت بعض الوقت حاضرة الدولة . أما
البصرة فقد ظهر فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يدعو لأخيه محمد .
وكان قد خرج بالمدينة فاستجاب لإبراهيم كثير من أهل البصرة ، فاستولى
عليها وعلى ما قرب من واسط والأهواز^(٤) .

لذلك اتبع للكوفيين أن يسبقوا إلى بغداد ، ففتح الخلفاء لهم
أبوابهم . ووكّلوا إليهم تأديب أولادهم . فكان الكسائي في حاشية
الرشيد ، ثم مؤدب ولديه^(٥) ، وكان الفراء مؤدب ولدى المأمون^(٦) ،

(١) وفيات الأعيان : ٥ : ٤٣٨ .

(٢) الفهرست : ١٠٧ .

(٣) الخصائص : ١ : ٨ ، ١٩٩ .

(٤) معاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٣١ ، ٧٦ .

(٥) إنباه الرواة : ٢ : ٥٦ ، بغية الرواة : ١٦٣/٢ .

(٦) بغية الرواة : ٢ : ٣٤٩ .

وكان ابن السكيت ينادم المتوكل^(١) ، فأعظم الناس لحاة الكوفة ، وأقبلت الدنيا عليهم . ولم يظفر البصريون الذين رحلوا إلى بغداد بمثل ما ظفر الكوفيون به ولا قريب منه ! فأخفق سيوبه في مناظرة الكسائي ، واتخذ الكسائي الأخفش مؤدباً لأولاده^(٢) ، وكان المبرد يعلم الزجاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً أجراً له^(٣) .

(١) طبقات النعمانيين : ٢٢١ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٥٩٠ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٤١١ .

النحو وأشهر علمائه

بعد انقسام الدولة العباسية

ضعفت الدولة العباسية . وتزايدت بنيتها . فطمع ولاية الأقاليم فيها ، وأوهنوا صلتهم بها . وكان آل بويه أجراًهم عليها ، فقد استقلوا بفارس والجزيرة . ثم استولوا على بغداد . وسلبوا الخليفة سلطانه سنة ٣٣٤ .

فنشأت دويلات هنا وهناك : وتعددت الخواضر فيها والأمصار . ولم تبق بغداد - كما كانت قبلة العلماء ومن إليهم . فقد كان حكام الدويلات يجدون في تأثيل ملكهم . ويختدبون العلماء والشعراء إليهم فقصدوهم وأقاموا في ظلالهم قليلاً أو كثيراً . لذلك بقيت الحياة العلمية على قوتها ونشاطها ، بل لعلها زادت قوة على قوتها ونشاطاً على نشاطها .

أشهر نحاة شرق دجلة

١ - السيرافي :

هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي . ولد بسيراف . حوالي سنة ٢٨٨ ، وأخذ اللغة والنحو عن بعض علماء عصره . وكان عالماً حجة ، أميناً ديناً ورعاً . توفي ببغداد سنة ٣٦٨ .

ومن كتبه : شرح كتاب سيويه ، والوقف والابتداء ، وأخبار النحويين البصريين^(١) . وعنده أن كان الزائدة ترفع ضمير المصدر الذي تدل عليه فاعلاً لها^(٢) .

٢ - الفارسي :

هو أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي . ولد بفسا مدينة قريبة من شيراز ، وأخذ عن ابن السراج وغيره . رحل إلى أقطار من الدولة ، وتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ . وله مصنفات كثيرة ، منها الإيضاح في النحو ، والتكملة في الصرف ، والحجة في علل القراءات السبع^(٣) . ومن آرائه أن الأسماء الستة لا تعرب بالحروف . ولكن بحركات مقدرة عليها^(٤) .

٣ - ابن جني :

هو أبو الفتح عثمان بن جني ، نشأ بالموصل ، واتصل بأبي علي الفارسي ، يأخذ عنه ويستمليه ، وتوفى سنة ٣٩٢ . ومن مؤلفاته :

(١) إنباء الرواة : ١ : ٣١٣ ، وبغية الوعاة : ١ : ٥٠٧ .

(٢) الجمع : ١ : ١٢١ .

(٣) طبقات النحويين : ١٠٣ ، وإنباء الرواة : ١ : ٧٣ .

(٤) الجمع : ١ : ٣٨ .

الخصائص ، وشرح تصريف المازني ، والمحتسب ، وهي مطبوعة ، وصر
صناعة الإعراب ، وقد طبع منه جزء واحد ^(١) .
ومن آرائه النحوية : أن إذا الفجائية ظرف مكان ^(٢) .

٤ - الزمخشري :

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، ولد بِزَمَخْشَر سنة ٤٦٧
ورحل إلى خراسان والعراق ، وجاور بمكة المكرمة . وكان من أعلم
الناس بالنحو واللغة والتفسير ، وغريب الحديث . وتوفي بخوارزم سنة
٥٣٨

ومن كتبه : المفصل والنموذج في النحو ، وأساس البلاغة في اللغة ،
والفائق في غريب الحديث ^(٣) ومن آرائه : أن لن تفيد توكيد النفي
وتأنيده ^(٤) .

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٣٣٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٣٢ .

(٢) المص : ١ : ٢٠٧ .

(٣) إنباه الرواة : ٣ : ٢٦٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ٢٧٩ .

(٤) المغني : ١ : ١٢٤ .

النحو في مصر والشام وأشهر علمائه

شاء الله تعالى أن تكون مصر والشام صينوين . وكلما فرقت بينهما الأحداث غادت فجمعتهما على المودة والإخاء ؛ لذلك سأجمع تراجم أشهر النحاة فيهما ، كما نجمع تراجم أبناء الوطن الواحد .

١ - ابن بابشاذ :

هو أبو الحسن طاهر بن أحمد . أصله من العراق ، ونشأ بمصر ، وتصدر للإقراء في جامع عمرو بن العاص . ثم انقطع للعبادة . وتوفي سنة ٤٩٦ .

ومن مؤلفاته شرح جمل الزجاجي ، والمحتسب في النحو^(١) . ومن آرائه أن إذن تنصب الفعل مع الفصل ييها ويينه بالنداء ، والدعاء^(٢) .

٢ - ابن مَعط :

هو أبو الحسن بن زين الدين ، ولد بحلب سنة ٥٥٣ ، ورحل إلى

(١) إنباء الرواة : ٢ : ٩٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٧ .

(٢) المغني : ١ : ١٩ .

دمشق فأقرأ بها النحو وبمصر. وتوفي في القاهرة سنة ٦٢٨ .
وله ألفية في النحو ، وحواش على أصول ابن السراج ، وكتب
أخرى ^(١) . ويختار من أحكام النحو أن ينوب الجار والمجرور عن الفاعل
حين يجتمع هو والمصدر والظرف بعد فعل مبنى للمجهول ^(٢) .

٣ - ابن يعيش :

هو موفق الدين بن علي المشهور بابن يعيش . ولد بحلب سنة ٥٥٣ ،
وأخذ عن علمائها ، وكان بارعاً في النحو والصرف . وتوفي بحلب
سنة ٦٤٣ .

ومن كتبه شرح التصريف لابن جني ، وشرح المفصل
للزحشرى ^(٣) ، وهو يؤيد أن الفاء في مثل : (قل إن الموت الذي تفرون
منه فإنه ملاقيكم) واقعة في خبر إن لا زائدة ^(٤) وهي من سورة الجمعة
من آية (٨) .

(١) بنية الوعاة : ٣٤٤/٢ . ونشأة النحو : ٢١٥ .

(٢) الجمع : ١ : ١٦٩ .

(٣) بنية الوعاة : ٣٥١/١ .

(٤) شرح المفصل : ١ : ١٣٤ .

٤ - ابن الحاجب :

هو عثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب ، ولد بإسنا حوالى سنة ٥٧٠ هـ ونشأ بالقاهرة ، ولازم الأخذ عن العلماء ، وكان من أذكى الناس ، فنبغ فى علوم شتى ، وغلب عليه النحو ، وتوفى فى الإسكندرية سنة ٦٤٦ .

ومن مصنفاته : الكافية وشرحها فى النحو ، والشافية وشرحها فى الصرف ، والأمالى . وغيرها ^(١) . وعنده أنه يجوز أن يكون خبر أن المذكورة بعد لو اسما إذا كان جامدا ^(٢) .

٥ - ابن هشام :

هو عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصارى . ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨ هـ ، وأتقن العربية حتى فاق أقرانه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦١ . وله مؤلفات كثيرة قيمة ، منها مغنى اللبيب . وأوضح المسالك ، وشذور الذهب وشرحه ^(٣) .

ويعد المغنى أبرع كتبه وأنفعها ، فقد ضمنه شرحاً وافياً لحروف

(١) بنية الرعاة : ٢ : ١٣٤ .

(٢) المص : ١ : ١٣٨ .

(٣) بنية الرعاة : ٢ : ٦٨ .

المعاني ، وأورد فيه كثيراً من القضايا ، مقرونة بالآراء التي قبلت فيها .
ثم مناقشة منصفة تؤيدها الشواهد والحجج ، وهو لا يميز ذكر أو بعد
سواء .

٦ - ابن عقيل :

هو أبو عبد الله بن محمد . أصله من همدان . ولد سنة ٦٩٨ ، وكان
إماماً في العربية . وتوفي سنة ٧٦٩ ، ومن كتبه شرح التسهيل ، وشرح
ألفية ابن مالك^(١) . وهو من أسهل كتب النحو وأشهرها .

٧ - الشيخ خالد الأزهرى :

هو خالد بن عبد الله ، ولد بجزا ، ومهر في النحو وعلوم اللغة .
وأقرأ في الأزهر ، وإليه ينسب . وتوفي سنة ٩٠٥ . ومن كتبه : شرح
كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام ، والتصريح بمضمون
التوضيح ، المشهور بشرح التصريح على التوضيح^(٢) . وهو أجل كتبه .

٨ - السيوطى :

هو عبد الرحمن جلال الدين بن أبي بكر . لازم أستاذه ، ينهل من

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٤٧ .

(٢) الكواكب السائرة : ١ : ١٨٨ ، وشذرات الذهب : ٨ : ٢٦ .

معارفهم حتى تضلع رياً . وانقطع للتصنيف ، فصنف قدراً عظيماً من الكتب في مختلف العلوم ، وتوفي سنة ٩١١ (١) .

وكتابه مع الهوامع من أنفس كتب النحو في جمع المسائل ، واختلاف المذاهب ، واستيعاب الآراء ، ولا يخلو الكتاب من بعض الاختيارات ، ومن اختياره في إعراب بحسبك درهم أن يكون بحسبك خبراً مقدماً ، ودرهم مبتدأ مؤخر (٢) .

٩- الأشموني :

هو علي نور الدين بن محمد من علماء عصره المحدثين . وأشهر كتبه منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك (٣) .

كتاب واسع الشهرة ، ينتهي كل باب فيه بخاتمة تتضمن حقائق لا تخلو من طرافة وفائدة .

١٠- الصبان :

هو محمد بن علي . ولد بالقاهرة ، وأخذ مختلف العلوم عن شيوخ عصره . وتوفي سنة ١٢٠٦ (٤) .

ومن مؤلفاته حاشيته على شرح الأشموني للألفية ، وهي أشهر حواشي النحو ، حافلة بالمنقول والتعقيبات والجدل والآراء .

(١) حسن الحاضرة : ١ : ١٨٨ . (٢) شذرات الذهب : ٨ : ١٦٥ .

(٣) المجموع : ١ : ٩٣ . (٤) تاريخ الجيوش : ٢ : ٢٢٧ .

النحو في الأندلس والمغرب وأشهر علمائها

كان السلف من علمائنا - يكترون الارتحال إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، وخاصة العراق ، ليلقوا علماءها ، ويطلعوا على ما عندهم من العلم ، ثم يعودوا بما جمعوا من كتب وماوعوا من علم .
وإذا كان ديدن العلماء الرحلة إلى البلاد البعيدة - فأولى أن تكون بين الأندلس والمغرب ، لكن يبدو أن أهل الأندلس كانوا أكثر ارتحالا إلى المغرب من أهل المغرب إلى الأندلس .
وقد قبض الله للأندلس في مطلع الدولة الأموية رواداً من العلماء ، وصلوها بالمشرق ، بما نقلوا إليها من كتب الشريعة والنحو .
وكان نحو الأندلس أقرب إلى نحو الكوفة ؛ لأن كتاب الكسائي كان أسبق إليهم^(١) وكان الأندلسيون أهل قرآن كالكوفيين ، ولم يستطع كتاب سيبويه إذ جاءهم أن يعدل من منهجهم كثيراً . فهذا ابن مالك أعظم نخاتهم - يوافق الكوفيين في كثير من آرائهم . ويكثر الاستشهاد بالحديث ما لم يكثر غيره .

(١) طبقات النحويين : ٢٧٨ .

أشهر نحاة الأندلس والمغرب

١ - ابن مضاء :

هو أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء ، ولد بقرطبة سنة ٥١٣ ، وكان عارفاً بصنوف العلم ، ومات بإشبيلية سنة ٥٩٢ .
ومن مصنفاته : المشرق في النحو ، والرد على النحاة^(١) ، وقد أنكر نظرية العامل فيما أنكر فيه على النحاة ، وغلا في ذلك غلواً كبيراً . وقد كان لنشر هذا الكتاب صدى قوى بين المشتغلين باللغة العربية ، فمنهم من تحمس له ، ومنهم من مقته وازور عنه .

٢ - الشلوبين :

هو عمر بن محمد المعروف بالشلوبين . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ ، وكان إمام عصره في العربية ، فكثّر الآخذون عنه . وتوفي سنة ٦٤٥ .
ومن مصنفاته : التوطئة في النحو ، وتعليق على كتاب سيويه^(٢) .
ومن آرائه أن ليس ولا تنفيان الأزمنة الثلاثة ، كما يقول قوم . ولكنها في الأصل لتنفى الحال ما لم يكن الخبر مخصوصاً بزمان^(٣) .

(١) بغية الوعاة : ١ : ٣٢٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢ : ٢٢٤ .

(٣) الجمع : ١ : ١١٥ .

٣ - ابن مالك :

هو محمد جمال الدين بن عبد الله . ولد بجبّان سنة ٦٠٠ . وأخذ العربية عن غير واحد ، واعتمد على ذكائه في تحصيل الكثير من علمه . رحل إلى الشام ، وتنقل بين مدنه ، ثم استقر في دمشق ، وتصدر للتدريس فيها حتى لقي ربه سنة ٦٧٢ . وله مصنفات كثيرة منها : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، والكافية الشافية ، وخلاصتها المعروفة بالألفية^(١) . وقد نالت شهرة واسعة بين كتب النحو عامة . وظفرت بعناية كثير من العلماء . فشرحوها شروحا مختلفة ، حتى صارت لها السيطرة على دراسة النحو . ومن آرائه : وقوع (إذ) مفعولا به^(٢) .

٤ - ابن آجروم :

هو محمد بن محمد الصنهاجي ، ولد سنة ٦٧٢ . وعاش بفاس . وله مصنفات أشهرها : المقدمة المعروفة بالآجرومية . وقد نفع الله بها كثيراً من طلاب العلم المبتدئين . وتدل فيما يقول السيوطي على أن مؤلفها كان على مذهب الكوفيين في النحو ؛ لأنه استعمل بعض مصطلحاتهم ؛ وتوفي سنة ٧٢٣^(٣) .

(١) بغية الوعاة : ١ : ١٣٠ .

(٢) المجموع : ١ : ٢٠٤ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٢٣٨ .

٥ - أبو حيان :

هو محمد أنير الدين يوسف . ولد ببند على مقربة من غرناطة سنة ٦٥٤ . وأخذ عن جمع كبير من علماء المشرق والمغرب . ونبغ في علوم كثيرة . وقد استقر في القاهرة بعد تجوال في بلاد مختلفة . وتصدر بها للتدريس .

ومن مؤلفاته : التذيل والتكميل في شرح التسهيل . وارتشاف الضرب من لسان العرب . وتفسير البحر المحيط . ونوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥^(١) .

وكان يمنع الاستشهاد بالأحاديث . ولا يرضى عن الخلاف في المسائل النظرية التي لا جدوى منها في اللغة : كالخلاف في أصل المرفوعات والمنصوبات . فيقول : « وهذا الخلاف لا ينجدي »^(٢)

(١) المصدر السابق : ١ : ٢٨ . وشاة البحر : ٢٦٦ .

(٢) الجمع : ١ - ٩٣ .

سيرة النحو

لم يكد أبو الأسود يبدأ وضع النحو ، ويكتب منه ما كتب ، ثم يعلم الناس نبأه حتى أسرع إليه نفر من الطلاب يسمعون منه ، ويتلمذون له ، ثم يقبل عليهم من بعد طلاب آخرون يصنعون صنيعهم هم مع أبي الأسود .

وهكذا تمضي المسيرة فوجاً بعد فوج ، كلما مضى فوج خلفه آخر ، على مدى نحو أربعة عشر قرناً . وما منهم إلا صانع للنحو صنيعاً ، أو مضيف إليه جديداً . كلُّ على مقدار ما يتاح له ، ويفتح الله به عليه . وكان عبد الله بن أبي إسحاق أول من ذكر الناس له عملاً في النحو بعد أبي الأسود ، فقالوا : إنه فرع النحو ، وقاسه ، وأملى كتاباً في الهمز^(١) ، والهمز حقيق أن يؤلف فيه كتاب ، فإن له في القراءات أحوالاً يتنقل بينها ، كما للاسم المعرب أحوال في الكلام يتنقل بينها أيضاً .

وقد مكنت له حقاوته بالهمز والتأليف فيه أن يفوز به على أبي عمرو ابن العلاء في المناظرة التي دعاها إليها بلال بن أبي بردة ، إبان ولايته

(١) مراتب النحويين : ١٢ .

على البصرة^(١) وإذن يمكن أن يقال : إن عبد الله بن أبي إسحاق هو أول من ألف كتاباً في الصرف ، وكانت وفاته سنة ١١٧ .

وألف عيسى بن عمر كتابين في النحو ، نوه بهما الخليل في بيتين ، ردّدتهما كتب التراجم المختصة ، وهما :

ذهب النحو جميعاً كلّهُ غير ما أحدث عيسى بن عمرُ ذلك إكمالاً ، وهذا جامع وهما للناس شمسٌ وقر واسم الكتاب الأول يدل على أنه أكمل نقصاً ، واسم الآخر يدل على أنه جمع متفرقاً . وفي هذا إشارة إلى أن النحو لعهد عيسى بن عمر كان قد قطع في سبيل الفوشوطاً بعيداً . وكانت وفاة عيسى سنة ١٤٩ . وبقي الكتابان أو أحدهما إلى القرن الثالث ، فيذكر المبرد أنه قرأ أوراقاً من أحدهما ، فكان كالإشارة إلى الأصول^(٢) .

ثم جاء كتاب سيبويه ، فبهر الناس ، واستأثر بإعجابهم ، فقد رأوا منه قصراً منيفاً ، شامخ الأعالى ، لا يسع الناظر إليه ، ولا الداخل فيه ، إلا أن يسبح الله الذي خلق الخليل ، وجعله خازن ذخائره ، وخلق سيبويه ، وجعله مهندس بنيته .

إنه اللغة في نحوها وصرفها وأصواتها ، بل في أصول بلاغتها أيضاً ، وإنه النحو في أحكامه وقضاياه . وفي أقيسته وعمله ، وفي أصوله

(١) أخبار النحويين البصريين : ٢٦ .

(٢) مراتب النحويين : ٢٣ ، وطلقات النحويين : ٣٧ .

وفروعه ، وفي مناهجه وشواهده . لم يدع من ذلك للذين جاءوا من بعده إلا يسيراً لا يحسب له حساب . والذين قالوا : إنه قرآن النحو لم يُتعدوا ولم يسرفوا . لقد ملأ الدنيا علماً ونفخ في الناس روحاً من البحث ما كانت لولاه لتكون .

وما نريد أن نبخس فضل السابقين من سلف سيبويه ، فقد أمدّه كثير منهم بقدر عظيم من الآراء والأحكام ، ولا سيما يونس بن حبيب ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء ، فكان لهم بذلك جهد مشكور في صنع الكتاب . وفي ظهوره فجأة على هذه الصورة شاهد صدق على مبلغ الجِد والإخلاص في دراسة النحو وتنمية مادته ؛ فليس بين ظهوره وابتداء وضعه سوى قرن واحد ، يزيد قليلاً . ولكنها المهمة الكبرى والمطلب الجليل يصنعان العجب العجيب .

ولم يكف النحاة بعد سيبويه ، ولا فُتِرَ همّهم عن التأليف في النحو ، فألفوا فيما يخطر منه بالبال ومالا يخطر ، لا تكاد تصرفهم عنه الفتن واضطراب الأحوال ، فكان من ذلك ثروة هائلة من كتبه ، تتخالف موضوعاً وحجماً ، ما بين مبسوط ، ووسيط ، ووجيز ، أكثرها في النحو والصرف معاً ، وبعضها في النحو خاصة أو الصرف خاصة . وتنوعت عبارات الكتب ، فواضحة وغامضة ، وبجيلة ومفصلة ، وقاصدة ومستطردة ، يشوبها قليل أو كثير من تجريد الفلسفة وصرامة المنطق . وما كان ممكناً أن يبرأ النحو منها ، فقد صارت لها الغلبة على

مناهج الدرس ومذاهب التفكير أيام ازدهار الحياة العلمية . فكان من أثرها أن غمضت العبارة قليلاً أو كثيراً . وخاصة في كتب المشرق ، وبعض كتب العصور الأخيرة .

على أن لغموض العبارات أسباباً أخرى ، كاجتذاب القرينة . وضعف ملكة البيان . وقد كان المازني ممن يصعب الفهم عنهم ^(١) . ومن العجيب أن يعتمد بعض النحويين الغموض ، بل أن يكون منهم من يعيب الوضوح . ويرى أن الأخذ به يُزرى بالنحو ، فقد قيل للأخفش : لِمَ لا تجعل كتبك مفهومة ؟ فقال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله . وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلىّ فيها . وإنما كانت غايتى المتالة ^(٢) . وكان السيرافى معروفاً بوضوح العبارة ، فلما ألف كتابه الإقناع فى النحو لم يرق ابنه أن يكون على ما رأى من السهولة ، فكان يقول : «وضع والذى النحو فى الزبالة» ^(٣) !

وكذا كان النحو نشوءاً وارتقاءً فى البصرة ثم الكوفة ، وهو ما يقضى به منطق الواقع . فلم يكن بنجيزة العرب ولا بالبلاد المفتوحة حاجة عاجلة إليه : فأما الجزيرة فوطن العرب والعربية ، وأما البلاد المفتوحة

(١) مراتب الحويين : ٧٨ .

(٢) الحيوان . ٩١/١ .

(٣) بغية الوعاة : ٥٠٨/١ .

فكان أهلها هم الكثرة الكاثرة ، وكان العرب وافدين عليهم ، وهم القلة القليلة ، ولم يكن الخِلاط أول الأمر كثيراً ولا عاماً بين هؤلاء وهؤلاء ، وإنما كان بين الرءوس من الفريقين وعلى قدر الحاجة الماسة ، ومن اليسير أن تكون الترجمة إذ ذاك هي وسيلة التفاهم بينهما والخطاب . فلمن يوضع النحو إذن ، وما الحاجة الدافعة إلى المبادرة إليه ، والتفرغ له ، والتأليف فيه ؟ ومثل الفائحين إذ ذاك في هذه البلاد ، كمثل البعثات السياسية التي تمثل دولها في دول أخرى في عصرنا ، أوتكاد .

من أجل ذلك تخلفت البلاد المفتوحة عن مواكبة مسيرة النحو في البصرة والكوفة . ولم ينهأ لها أن تشارك فيها بالدراسة المتخصصة والتأليف الرفيع إلا حوالى القرن الثالث حين دعت الحاجة إلى شد أزر العربية . والحفاظ على سلامتها .

وظل النحو على ما كان له من شأن إبان عظمة الدولة . فلم يتوقف في مسيرته . ولا غرض منه أن تضعفعت الخلافة . وأصبحت الدولة مِرْقاً متناثرة . يقوم على كل مِرْقَة دويلة . بل لعله أن يكون كغيره من العلوم قد زاد خصباً ونماءً . فقد كان بين أصحاب هذه الدويلات تنافس ، وفيهم طموح . كل يحاول أن يجتمع بحضرته من العلماء والشعراء مثل من كان منهم بحضرة الخلفاء وأكثر ممن بحضرة أقرانه من أصحاب الدويلات . فجعلوا يجتذبونهم . ويحببون إليهم المقام في

ظلالهم ، بما كانوا يميزون لهم من الجوائز ، ويولونهم من التكرمة والإجلال ، لا فرق فيهم بين عرى وأعجمى .

فكان لهم ما أرادوا ، وقصدهم العلماء والشعراء ، يؤلف العلماء لهم الكتب ، وينظم الشعراء لهم المدائح : فهذا أبو على الفارسي كان عند سيف الدولة الحمداني ، ثم استدعاه عضد الدولة بن بويه ليؤدب أولاد أخيه ، فمضى إليه أبو على ، وألف له كتاب الإيضاح ، فعده قصيراً ، وكانت له مع أبي على مجالس ومساءلات في النحو^(١) .

وولت الدولة الفاطمية ابن بابشاذ ، ثم ابن بَرى أمر ديوان الإنشاء لنظر ما يصدر عنه من رسائل ، وإصلاح ما عسى أن يشوبها من أخطاء^(٢) ، ووفد تاج الدين الكِندي على قروخشاه ابن أخى صلاح الدين في دمشق ، فأكرم وفادته واستوزره ، وقرأ عليه المعظم عيسى الأيوبي كتاب سيويه وشرح الإيضاح^(٣) . ووفد ابن الحاجب على الملك الناصر داود بالكرك ، فأعظم قدره وقرأ النحو عليه^(٤) وأهدى الغوري إلى السيوطي خصباً وألف دينار فرد الألف . وأخذ الخنصي وأعتقه . وجعله خادماً في الحجرة النبوية^(٥) .

(١) بغية الوعاة : ١٤٦/١ .

(٢) المصدر السابق : ١٧/٢ ، ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ٥٧٠/١ .

(٤) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية : ٢٠٧ .

(٥) تاريخ الجبرتي : ٢٢٦/١ .

وكثير من الناس يمجّتون النحو ، لكثرة الخلاف ونشابت الآراء فيه . ولا يد لأحد في هذا ، فهو من عمل الظروف والأحوال . لقد تداول العلماء النحو يوسعونه دراسة وبحثاً على توالى العصور . وكثير من شواهد تتعدد رواياته ، والنحويون كثيرهم تتفاوت حظوظهم من العلم ، وتتفاوت درجاتهم في التدقيق والفهم .

ولم يفت النحاة آخر الأمر أن ييسروا النحو على طالبيه . فتناولوه بالنظم والاختصار ، وأشهر منظوماته ألفية ابن معط وألفية ابن مالك . ولا خلاف أن الكلام المنظوم أسهل حفظاً وأبقى في الذاكرة أثراً . على أن آراء النحاة في كثرتها وتخالف مذاهبها إن تكن ترهق المتعلمين في درس النحو - فإن فيها عوناً محموداً للغويين الذين يرقبون اللغة المعاصرة في تطورها واستحداث أساليب وألفاظ فيها . فليس يعدمهم أن يقفوا منها على رخصة ، أو يهتدوا بها إلى وجه يقبل عثارها ، ويجيز استعمالها في فصيح الكلام . ومن النحاة من اتخذ النظم أداة للإغاز بعض مسائل النحو . واشتهر من هؤلاء السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣^(١) . والد ماميني المتوفى سنة ٨٣٧^(٢) . وهو نوع من المهارة الذهنية لا قيمة له ولا جدوى منه .

(١) بغية الوعاة : ١٩٢/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٦/١ .

النحاة في المجتمع

ما من أحد يمارس عملاً حتى يُعرف به ، ويُنسب إليه -- إلا خلف فيه أثراً متميزاً . وقد أورث النحوا أصحابه الأولين غيرة على اللغة ، وجراحة على نقد المخطئين فيها . فضايق بهم خلق كثير . قال الأخفش : كان أمير البصرة يقرأ قوله تعالى في سورة الأحزاب من آية ٥٦ : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) بالرفع ، فضيت إليه ناصحاً ، فانتهرني . وتوعدني . وقال : تلحنون أمراءكم ؟^(١) وكان الشعراء أشد الناس سخطاً عليهم لذلك ، فهجوهم ، وسخروا منهم .

ومن النحاة من كان يتقعر في كلامه ، كأبي علقمة النحوي ، فقد رأى عبداً حبشياً يضرب الأرض بآخر صقلبي . ويدخل ركبتيه في بطنه ، فلما أدخل للشهادة قال : رأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فحطّاه على قدقده ، ثم ضفطة برصفتيه ، فلم يفهم الأمير كلامه وضايق به فحسر عن رأسه . وقال للصقلبي : شجني خمساً . وأعفني من شهادة هذا^(٢) .

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٤٣ .

(٢) بنية الوعاة : ٢ : ١٣٩ .

على أنه كان من النحاة ظرفاء ، منهم سعد بن شدّاد ، إذ حضر مجلس زياد ، وقد ترفع إليه بنو راسب والطّفاوة في مولود . فقال سعد : أيها الأمير ! يلقي المولود في الماء ؛ فإن راسب فهو من راسب ، وإن طفا فهو من طّفاوة ، فأخذ زياد نعله ، وقام ضاحكاً^(١) . وقال محمد بن موسى الدوالي :

وقائلة : أراك يغير مال وأنت مهذب علم إمام
فقلت : لأنّ لأمّا عكس مال وما دخلت على الأعلام لام^(٢)

وكان النحاة في رزقهم ، وأحوال معيشتهم ، وسيرتهم في الناس كسائر الطوائف ، فكان الكسائي والقراء من مؤدبي الأمراء وأبناء الكبراء . وكان ثعلب يقتضى كل شهر ألف درهم يجرها عليه محمد ابن عبد الله بن طاهر ، وكان مع ذلك حريصاً مقتراً^(٣) .

وكان المبرّد يعلم الزجّاج النحو ، فيعطيه الزجّاج كل يوم درهماً^(٤) . وكان ابن الدهان من أئمة النحو ، وكانت له مشاركة في الفقه والأصول ، وكان مع ذلك شديد الفقر ، يجلس في الحلقة وعليه ثوب لا يكاد يستره^(٥) . وكان السيرافي لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠ .

(٢) المصدر السابق : ١ : ٢٥٢ .

(٣) طبقات النحويين : ١٥٥ - ١٦٧ .

(٤) إنباء الرواة : ١ : ١٥٩ .

(٥) بغية الوعاة : ١ : ٥٢٣ .

يجلس التدريس في كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجراها عشرة ذراهم تكون قدر مئوته ^(١) .

وطلب القائم بأمر الله محمد بن الوراق ليعلم أولاده ، وكان ضريراً . فلما وصل إلى باب حجرة الخليفة ، قال له الخادم : وصلت ، فقبل الأرض ، فلم يفعل وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وجلس . فقال القائم : وعليك السلام يا أبا الحسن ، أذن مني ، فدنا ، فسأله عن مسائل أجاب عنها ^(٢) .

وكان عبد الله بن الحشاش يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعة الطريق ، ويقف في الشوارع على خلق المشعوذين ، واللاعبين بالقروود والذبيبة . وكان إذا أراد شراء كتاب غافل الناس ، وقطع منه ورقة ، ليأخذه بثمن بخس ^(٣) !

وليس كل ما ترك النحاة من النحو هو هذا المدون في كتبه أبواباً وفصولاً ، ولكنهم تركوا قدراً صالحاً من النظرات فيه ، تعد دروساً عالية في المساجلة والتطبيقات . وأشهرها مناظرة سيويه والكسائي : فقد جاء سيويه الكوفة ، لا يصحبه أحد من شعبيته ، لينظر الكسائي في وطنه ، وبين تلاميذه ومريديه .

(١) إنباء الرواة : ١ : ٣١٣ .

(٢) بقية الوعاة : ١ : ٢٥٥ .

(٣) بقية الوعاة : ٢ : ٣٠ .

والتأم الجميع في مجلس يحيى اليرمكى ، فقال الكسانى لسيويه :
تسألنى أو أسألك ؟ قال سيويه : بل تسألنى أنت . قال الكسانى : كيف
تقول : قد كتبت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هوى ،
أو هو إياها ؟ قال سيويه : فإذا هو هوى ، ولا يجوز : هو إياها . قال
الكسانى : يجوز الوجهان . فاحتكموا إلى من يباب يحيى من العرب .
فوافقوا الكسانى^(١) ، فاستكان سيويه . وانصرف مهزوماً .
ويرى كثير من النحاة أن العصبية تدخلت في المناظرة ، على نحو ما .
ولا أراه بعيداً ، فالكسانى وثيق الصلة بكبار الدولة ، وهو بعد إمام نخبة
الكوفة بلا حول .

وبعد ، فقد صنع النحاة للعرية أعظم ما يستطيع البشر أن
يصنعوا . ويرحم الله أبا العلاء المعرى إذ يقول : عن ثلاثة من كبرائهم :
تولى سيويه وسجائس سبب من الأيام ، فاختل الخليل
ويونس أوحش منه المغاني ودون مصابه الخطب الجليل
أنت علل الترن لا بكاهم من اللفظ - الصحيح ولا العليل
ولو أن الكلام بحس شيئاً لكان له وراءهم أليل^(٢)

(١) انظر مثلاً رغبان الأعيان : ٣ : ١٣٤ ، والمغنى : ١ : ٧٤ .

(٢) اللزومات : ٢ : ١٥٧ ، الأليل : المصراع عند المصيبة .



تقديم

خمس ٢٠٪ على كتب دار المعارف
١٠٪ على كتب الفير عربية ومستوردة
٥٪ على الكتب الجامعية

لأصدقاء دار المعارف
مرحباً بك صدیقاً لنا

تقدم إلى أقرب مكتبة من مكبات الدار :

- ارجاء نموذج طلب الصداقة واستلم بطاقة الصديقت
- ارجاء مبلغ جنيه واحد
- عندما تصل مستديا نك إلى ٢٥ جنيها سيرد إليك الجنيه
- تمتع بمميزات الصداقة طالما تحمل بطاقة الصديقه

مكبات دار المعارف
منتشرة في المدن الكبرى

القاهرة - الإسكندرية - طنطا - شبين الكوم - الزقازيق - المنصورة
الاسماعيلية - العريش - أسسيوط - سوهاج - قنا - أسوان

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٢٨٤
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٥٣٤-٠

١/٧٨/٢٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تاريخ العرب

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب موجزا لتاريخ العرب
العربي في نشأته وتطوره وعوامل التأثير فيه .
وأشهر علمائه الذين حملوا أمانة . فحفظوها
وأدوها أحسن الأداء .
وعلم النحو هو أول علم دون في الإسلام .
وتتابعت عليه أجيال من العلماء الجادين الذين
وضعوه في صورته المتكاملة . وأفادوا به الأجيال
الملاحقة إفادة لا تنقطع ما دامت اللغة وما دام
الفكر العربي .

قروش خمسينية
١٩٠٠

To: www.al-mostafa.com